التقويض الثقافي

دراسة نقدية في المظاهر والغايات

الدكتور
حسن الخاقاني
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

التقويض الثقافي دراسة نقدية في المظاهر والغايات

الدكتور
حسن الخاقاني
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

المقدمة:ـ

يحاول هذا البحث أن يقف عند إحدى ظواهر الفكر الحديث المهمة وهي ظاهرة التقويض التي ظهرت في الفكر الاوربي بصور مختلفة بدات في المجال الفلسفي وانتقلت منه إلى مجالات عملية اتسعت اثارها الخطيرة في الزمن المعاصر الذي ما زلنا نعيش فيه تطبيقاته العملية.

اختار البحث مصطلح "التقويض" من بين مجموعة من المصطلحات المرادفة التي يقف: التفكيك " في مقدمتها وذلك لدقة دلالته اللغوية والاصطلاحية في الوقت نفسه، فالتقويض يقترن بالهدم والتفتيت وبعثرة المراكز الثابتة وهذا ما فعله الفرنسي جاك دريدا الذي قرن اطروحته بشبكة اصطلاحية فيها الاختلاف والارجاء التي تركز جميعا على المعنى الذي لم يعد ممكنا الامساك به في ظل هذه المصطلحات التي ركنت مهمة اختياره إلى القارئ الذي يسبغ المعنى الذي يراه مناسبا بحسب رؤيته والظروف التي يخضع لها، وبهذا يظل المعنى متحركا غير قابل للثبات في اية لحظة من عمره الذي لا يتوقف عند محطة ما الا ليغادرها سريعا باتجاه محطة أخرى.

ركز هذا البحث على محور واحد منمحاور التقويض وهو المجال الثقافي دون سواه وذلك لسعة المجالات التي عمل فيها التقويض، ومع هذا فقد جرت الإشارة سريعة إلى عمل التقويض في الحقول المجاورة التي لها مساس مباشر بالحقل الثقافي، وقد وجد البحث ان التقويض الذي يبدو من نتاج القرن

العشرين لم يكن كذلك وان بلغ اشده في هذا القرنذلك بان الفلسفة الاوربية قد تدرجت فيه منذ قرون وان جرى ذلكبخطوات بطيئة لكنها تسارعت مع تسارع إيقاع الزمن الحديث، ويمكن ان نجد اوليات التقويض لدى كل من نيتشه وكارل ماركس وفرويد وداروِن وكلود ليفي شتراوس وغيرهم من اعلام الفكر الاوربي الحديث كل باختصاصه ورؤيته الفلسفية التي مهما اختلفت فانها تلتقي عند هذه النقطة الاساسية في الفكر الحديث وهي التقويض بمختلف أشكاله وأساليبه.

توصل البحث بعد ان استكمل دراسته الموجزة إلى مجموعة من النتائج التي ادرجها بنقاط جعلها في خاتمته معتقدا في الوقت نفسه ان هذه النتائج ليست نهائية وليست قطعية ايضا فهي قابلة للنقاش والتعديل بحسب الرؤية أو المنهج الذي تنطلق منه الدراسة، فقد كانت الغاية في البدء ليس التوصل إلى نتائج قطعية بقدر ما كانت الغاية الإشارة إلى قضية التقويض نفسها واثارة الانتباه اليها ليتجه اليها الدارسون بمزيد من العناية والتركيز للكشف عن الاسباب والدوافع الكامنة وراء ما يجري في حياتنا التي تشهد تغيرات حاسمة في هذا الزمن العجول.

التقويض:

هو من المفاهيم النقدية الفلسفية الحديثة التي شاع استعمالها في الثقافة العالمية، وهو المرادف الأكثر دقة ودلالة لمصطلح التفكيك، أو التشريح، الذي جاءت به الترجمات العربية التي قدمت اعمال المفكر الفرنسي ذي الأصل الجزائري جاك دريدات ٢٠٠٤.

وينصب فعل التقويض على خلخلة المرتكزات الثابتة أو التي تبدو كذلك في الثقافة الإنسانية وهدمها من دون السعي إلى إعادة بنائها أو تقديم بديل

عنها، فهو يقوم - كما هو واضح من معناه اللغوي - (بقلب كل ما كان سائدا في الفلسفة الماورائية سواء كان ذلك هو المعنى الثابت أو الحقيقة القارة أو العلمية أو المعرفة أو الهوية أو الوعي أو الذات المتوحدة، باختصار كل الأسس التي يقوم عليها الخطاب الفلسفي الغربي)[١] وذلك بتسليط فعل القراءة على هذه المنظومة التي تتسع لتشمل (ليس الفلسفة حسب بل التاريخ والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والفكر السياسي...)[٢] ومختلف مجالات الحياة التي استند اليها الفكر الغربي منطلقا في ذلك من مركز ثابت مثله العقل أو اللوجوس، فقد كانت فلسفة الغربيين ولمدة طويلة (فلسفة عقلية بحتة تمجد العقل وتأخذ به كمقياس، أو كمعيار، لتقويم المعرفة والحقيقة، وتحكم به على اصالة الشيء وقيمته الامر الذي جعلها تنفي كل معنى لا يتوافق مع النماذج العقلية التي يتصورها، فهي قد رفضت كل معنى أو تأويل أو قراءة تبتعد عن التصورات العقلية أو تخرج عن إطار سلطة العقل)[٣] التي سادت في عصر الانوار الذي اعقب سباتا طويلا عاشت فيه اوربا في ظل هيمنة الكنيسة في استنادها إلى الماورائيات وسلطة الخرافة، ولذلك جاء رد الفعل قويا وبعيدا في مساره في الارتقاء بشان العقل (فتعدى كونه مجرد آلة للتفكير ليرتقي إلى ان يصبح منبع المعرفة ومصدرها والقوة المنظمة للعالم ومنبع الابداع ومصدر كل التصورات وكل المفاهيم والمسميات للاشياء الوجودية، واكثر من ذلك جعلته الميتافيزيقيا الغربية مفهوما يحكم العالم باسره، بمعنى ان جميع الاشياء أو الظواهر والموجودات تخضع لنظامه وتصاغ حسب آلياته ومعطياته الخالصة)[٤] وترافق ذلك مع انبهار اوربا بنتائج العلم التجريبية، وسيادة الفلسفة المادية التي طغت على ما سواها من انماط التفكير.

جاء التقويض ليفتت هذه المركزية التي صنعها الغرب للعقل وقد انطلق في

ذلك من إيمان بعدم وجود مركز أصلاً مهما كان نوعه، لذلك لم يقتصر على تشتيت مكانة العقل والاطاحة بها، وإنما بذل جهدا واضحا في مجالات مختلفة بمجرد ان تتسم بالثبات أو تقترب منه داعيا (إلى التفكير بعدم وجود مركز، فالمركز لا يمكن لمسه في شكل الوجود؛ بل ليس له خاصية مكانية، كما انه ليس مثبتا موضعيا بل وظيفيا، انه في الحقيقة نوع من اللامكان، وبغيابه، أو تقويضه، يتحول كل شيء إلى خطاب، وتذوب الدلالة المركزية أو الاصلية المفترضة أو المتعالية، وينفتح الخطاب على افق المستقبل دونما ضوابط مسبقة)[٥] معتمدا في ذلك آلية القراءة الحرة (عن طريق الخلخلة واللعب الحر للكلمات؛ لانها تقوض النص لأنها تبحث في داخل ما لم يقله بشكل صريح واضح "مسكوت عنه " وهي تعارض منطق النص الواضح المعلن وادعاءاته الظاهرة بالمنطق الكامل في النص، كما أنها تبحث في النقطة التي يتجاوز فيها النص القوانين والمعايير التي وضعها لنفسه، فهي عملية تعرية للنص، وكشف أو هتك لكل أسرار هو تقطيع أوصاله وصولا إلى أساسه الذي يستند إليه فيتضح هذا الأساس وضعفه ونسبيته وسيرورته، فتسقط عنه قداسته وزعمه بأنه ثابت متجاوز)[٦] فهي لا تتعامل مع النص الا بكونه كتابة يمكن ان يستعاض عنها بكتابة جديدة تقوم على انقاضها تكون في الوقت نفسه قابلة للتفتيت والتقويض بحسب رؤية اخرى مغايرة ذلك بأن التقويض لا يؤمن بوجود معنى ثابت في النص، بل هو لا يؤمن حتى بوجود معنى ما، فالمعنى تنتجه القراءة الحرة التي أوكل أمرها إلى قارئ حر متغاير في الزمان والمكان، الظروف المحيطة به ايضا وهو الذي يعيد تشكيل النص بحسب رؤيته، وبهذا توصل التقويض إلى نتيجة أولى مهمة وهي تحطيم بنية النص، وتشتيت معناه أو أرجائه، واختلافه باختلاف القراء واختلاف القراءات، فلا نص، ولا معنى له محدد، وإنما هو خطاب متغير بتغير قراءته.

جذور التقويض:

إذا كان التقويض يبدو مهيمنا على نهاية القرن العشرين ببروز دريدا شخصية فلسفية ونقدية متميزة فإن جذوره تمتد إلى القرن السابق، بل قبله أيضاً (فالواقع ان بعض الافكار الاساسية لتفكيك دريدا مثل المعرفة واللغة، والحضور والغياب، لا نهائية الدلالة، رفض الثوابت والقرءات المتعددة، وغياب المركز الثابت للمعرفة، والتناص، وفوق هذا وذاك مفهوم التدمير ذاته تتطابق مع فلسفة هيدجر التاويلية بصورة تتخطى حدود المصادفة أو تواتر الفكر)[٧] وهذا ما يبدو أكثر وضوحا إذا وقفنا عند فيلسوف التشاؤم فريدريك نيتشه فدريدا هو امتداد واضح لأفكار نيتشه إذ كلاهما يندفع في لعبة الدلالات متعددة المعاني[٨] التي تظهر لها تجليات أخرى في ميادين مختلفة، ولدى أعلام مختلفين، ولكنها تجتمع في نقطة واحدة هي الشك، فالتقويض هو (إفراز عصر الشك الذي خيم على كل شيء فاستحالت معه المعرفة اليقينية وفقد العالم محور ارتكازه، وهي أمور تفسر لا نهائية الدلالة القائمة على استحالة المرجعية لأي سلطة خارجية ليست موجودة أصلاً، ونفي وجود التفسيرات الموثوقة أو المعتمدة، والنتيجة إطلاق المعنى)[٩] من كل قيد أو حد.

لم تكن اراء نيتشه وقوله بموت الألوهة سوى رافد واحد من مجموعة روافد تعاضدت على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين على غرس مبدأ التشكيك في الإنسان ذاتاً ووجوداً وماهية، فكارل ماركس أحال الإنسان إلى مجموعة علاقات اقتصادية، فهو نتاج البنية التحتية ومنظومة علاقاتها التي يحكمها تملك وسائل الإنتاج، وجارلس دارون جدع انف الإنسان وأذل كبرياءه حين كشف عن اصله الحيواني الوضيع الذي امضى فيه ملايين السنين قبل ان يتطور عنه أي صورته الحاضرة، وفرويد جعل الإنسان صنيع اللاوعي

المتحكمة بتأثير غريزته الجنسية، وجاء كلود ليفي شتراوس ليعزز مسار التقويض باحلاله البنية أو النسق أو النظام محل الإنسان، ثم اجهز ميشيل فوكو على البقية الباقية ليعلن موت الإنسان وكل ما يتعلق به من علوم هي في مجملها لا تعدو ان تكون مجرد مجموعة من الخطابات التي صنعها الإنسان عن نفسه، وفي الوقت نفسه اعلنت البنيوية بلسان رولان بارت موت المؤلف "الإنسان " ليغدو النص حرا من غير انتماء [١٠].

ان هذه السلسلة من الاماتات التي الحقت بالإنسان ومنشئه ومرجعه الروحي والنفسي جعلت التقويض يبدو مستريحاوهو يوجه ادواته النقدية الماحقة إلى كل ما صنعه الإنسان أو ارتكز إليه من مفاهيم وافكار مادية أو معنوية، ليبقى بعدها الإنسان معلقا في الهواء بعد ان تقطعت به سبل الاتصال أو التواصل بمرجعياته التي اطمأن اليها في ما مضى من عمره الطويل.

الثقافة ومجال التقويض:

الثقافة من المصطلحات التي تعجزالموسوعات عن اعتماد تعريف لها، لا لسعة مفهومها حسب وما يندرج تحته من تفاصيل، وانما لتعدد مدلولاتها واختلافها باختلاف الزمان والمكان والبيئات الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تنتجها، وقد نظر (هابرماس) إلى هذه القضية وهو يحاول ان يضع تعريفا للثقافة فوصفها (بأنها منظومة من المعاني الذاتية التي يعتنقها الافراد عن انفسهم وعن العالم المحيط بهم)[١١] ثم يقر في توضيح ذلك بإن (القواعد التي يتم بناء المعاني بمقتضاها تختلف من موقف لآخر، اذ يستحيل اقامة قوانين عامة تصف تكوين المعاني)[١٢] فالثقافة ليست خاية ذاتية يقيمها الإنسان لنفسه بمعزل عن بيئته ومجتمعه، أو البيئة والمجتمع الذي نشأ أو عاش فيهما، ولذلك وصفها هابرماس بأنها سلوك اجتماعي تواصلي، فالثقافة ذات صفة اجتماعية تتجلى في السلوك ويعبر عنها الأفراد مفردين أو مجتمعين، منطلقين في ذلك من

(رؤى العالم وانماط الفكر عن طريق نظرة الأفراد والجماعات إلى ذواتهم، وهذه هي المادة الاولية التي تؤلف الثقافة في المحل الأول)[١٣].

ولا يقف هابرماس وحده منفرداً في هذه الرؤية بل يشاركه اعضاء مدرسة فرانكفورت التي ينتمي اليها وقد حاولت جاهدة تقويم الحداثة وما بعد الحداثة والرجوع بها إلى المسار الأول الذي انطلق منه في عصر الانوار وهو العصر الذي أعطى الإنسان قيمة كبرى افتقدها في عصور الظلام السابقة، ثم افتقدها بصورة اكبر على ايدي دعاة الحداثة وما بعد الحداثة، ولذلك نجد الدعوة واضحة قوية في اعمال مدرسة فرانكفورت من اجل العودة إلى الإنسان بإحيائه وإحياء مرجعياته التي اماتتها الحداثة كالدينوالمجتمع والعقل من خلال التوكيد على الفعل الاتصالي للإنسان فرداً أو جماعة[١٤].

ولو نظرنا إلى هذه الآراء لوجدناها واضحة قوية في الرد على كل ما فعله التقويض في نسف الكيان الإنساني، وفي الوقت نفسه نجدها رداً على ما فعلته حركة الاستعمار الاوربي التي قوضت البنى الثقافية للشعوب المستعمرة لتحل ثقافتها الوافدة محلها باسم التجديد والتحديث والتقدم والتحرر وسواها من المقولات التي تبطن غير ما تظهر.

مجالات التقويض:

لم يقتصر التقويض على مجال فكري أو إبداعي محدد وإنما اتسع نطاق عمله ليشمل مختلف مجالات الحياة الإنسانية بمختلف ازمنتها، ففي مجال الفكر بدأ التقويض باللوغوس أو العقل (ودريدا في اعتماده على مفهوم اللوغوس المسيحي كما طوره آباء الكنيسة لينقض اسس اللوغوس ويبين تهافته قد سار على طريق فهم اليهودية للوغوس، إذ التقليد اليهودي لا يرى فاصلا بين الكلمة والشيء، والقيمة توهب دائما للنص الذي لا يسبق الكلمة المنطوقة

حسب وانما يسبق التكوين الكوني نفسه)[١٥] وهو بها يربط بين العقل والكلمة، أو بين التفكير واللغة، فاللغة لم تعد قادرة وفقا لهذا المفهوم على حمل معنى محدد، وهي ليست أداة أمينة للتفكير، وقد وسمها نيتشه من قبل بالطابع الاستعاري الكنائي، لابد لها من الوقوع تحت اثر لعبة الدلالات ولاسيما في الشعر والأدب عامة، وهو رأي يمثل جزءا من رؤية نيتشه وتصوره للعالم، وفي تفكيك الحقيقة [١٦].

وسرعان مانمت بذرة الشك هذه بقوة في مجال اللغة (فحتى فعل التفلسف ذاته دخل لعبة الكلمات والعلامات التي ميزت هذه الحقبة، وهكذا تحولت إشكالية الفلسفة من إشكالية انطولوجية تتعلق بكينونة الإنسان ومصيره إلى مجرد أسئلة تختصر قضايا لغوية عند فلاسفة التحليل اللغوي مثلا، إذ يؤكدون انه لا يمكن خلق تطابق بين لغتنا والعالم الخارجي)[١٧] لتنتقل اللغة بذلك من كونها أداة ناقلة للفكر، ووسيلة أساسية من وسائله إلى كونها مجالا للتأويل، والربط بين الرموز ومدلولاتها، وبذلك فقدت اهليتها المشروعة لتكون محل شك، كونها فقدت أمانتها التي كان يمكن الوثوق بها والركون إليها.

تتجلى اللغة بالادب بوصفه المجال الاكثر استيعابا للتعبير ولذلك اهتم التقويض به ففند النظريات التقليدية ليعلن عن ولادة جديدة للنص المفتوح امام تعدد القراءة واختلاف المعنى، ولتحل (الكتابة) محل اللغة والنص، وهي بهذا (تطمح إلى تفنيد المفاهيم المعيارية للحقيقة، أنها تجرد الميتافيزيقيا والمثالية والواقعية من وسائلها وتعد المقولات الموروثة عن الحقيقة منوجدة بوساطة الممارسة الدلالية للخطاب الفلسفي أو الفكري الذي يحددها ويشرحها، فالمرجع بالنسبة للحقيقة مقرر سلفا بالمعنى، ولكن المعنى متعلق بالكتابة الادبية بوصفه اختلافا متواصلا للدلالات، ولهذا فان الغراموتولوجيا "الكتابة" ترى ان ليس هناك شيء قبل اللغة أو بعدها فمفاهيم الحقيقة والعقلانية ما هي إلاّ

نتاج المجاز والاستعارة، وهذا استنتاج يقترب على ما يقرره نيتشه عندما يقول: ان الحقيقة وهم)[١٨] فهو يتسع لكي لا تقتصر على اللغة حسب وإنما لتشمل الخطاب الإنساني بكل مكوناته ومجالاته المختلفة.

وحين اطمأن التقويض إلى انجاز مهمة تعرية الإنسان من مرجعياته التي يطمئن إليها، وهي الالوهة والفكر واللغة بما له من امتداد في مجالات واسعة، التفت إلى الإنسان نفسه ليقوض الأرض من تحت قدميه فيطيح به منطلقا بذلك من شعوره بالمكانة الكبيرة التي كان يحتلها (فقد حظي مفهوم الإنسان باهتمام بالغ منذ الفلسفة اليونانية على اعتبار انه يشكل موضوع المعرفة الاساس والاشكالية الرئيسة التي تتمحور حولها المفاهيم الأخرى وترفدها، ذلك بان هذا المفهوم بقي إلى وقت قريب محاطا بهالة من القدسية والسمو جعلاه بمنأى عن الانتقادات)[١٩] وقد استمد الإنسان هذا المقام من الدين أولاً، وارتباطه بخالقه، ولكن التقويض سبق له ان اطاح بهذا المرجع، وكذلك الفلسفة التي لقيت المصير نفسه (فالإنسان لم يعد المرجع الأساس الوحيد للمعرفة، والموضوع الكلي الشامل الذي ينبثق عنه المعنى، أو المصدر الملهم للدلالات والتحولات التي يمكنها تغيير مجرى الحياة والأحداث، على العكس من ذلك فقد شعرت الفلسفة المعاصرة ان الفكر الفلسفي كذب على نفسه بنفسه بوصفه هذه المفاهيم التي لا تعطي صورة حقيقية عن الإنسان في مركز الصدارة)[٢٠] التي لم يكن وجوده فيها الا وجودا خادعا يجب إزالة القناع عنه، ومن اجل هذه الغاية توالت جهود اهل التقويض كل في مجاله، لتحديد أثر الإنسان أولاً، ثم السعي إلى التخلص منه نهائيا، وهذا ما فعلته البنيوية التي أحلت النسق أو النظام محله، وتوج هذا الأمر بإعلان ميشيل فوكو "موت الإنسان" والتخلي عن العلوم المتصلة به كونها مجرد خطابات بناها الإنسان لنفسه لا يمكنها ان تقول الحقيقة أبداً، وقد رأى فوكو ان الحركات الإنسانية

التي مرت في التاريخ لم تكن تستند في رؤاها إلى مصادر ثابتة، فقد بنت (مفهومها للإنسان أما على العلم، أو على الدين، أو على الفلسفة، وهذه أسس لها تاريخها المتحيز الطويل)[٢١].

كان من نتيجة فصم علاقات الإنسان عن مرجعياته ان ترك معلقا في الهواء يشعر بشعور الغربة واللاانتماء، خاصة وهو يرى ان علاقات جديدة حلت محله، علاقات اقتصادية - إنتاجية، أو علاقات لغوية يمثلها الخطاب، أو غيرها مما يتصل بحياته الواقعية، ولذلك هيمن عليه هذا الشعور بالغربة والاغتراب في ظل الميتافيزيقيا الحديثة التي أحلت الآلة محل الإنسان، بل امتلكت الآلة السيادة على الإنسان نفسه وهو الذي اوجدها وصنعها لكنه ما لبث ان صار عبدا لها، أو ضحية من ضحاياها، ضحية مادية مباشرة، أو معنوية غير مباشرة، وهذا بعض نتائج تطور التكنولوجيا والفلسفة المرافقة لها[٢٢].

وتجسد ذلك بما ينتجه الإنسان تعبيرا عن نفسه، فقد ساد أدب اللامعقول، والشعور بالعدم واللاجدوى، والقلق والهجران، وهيمنت الاتجاهات الفنية التي (تتضمن تحطيم كل ما هو إنساني، انها هدم تقدمي لكل القيم الإنسانية التي كانت سائدة في الأدب الرومانسي والطبيعي)[٢٣] وقد هيمنت إشكال الفن المبتذلة على المنظومة الثقافية، خالية من الصفات الجمالية، مشيعة النمط الاستهلاكي السريع[٢٤] الذي لا يعدو ان يكون فقاعة تائهة في الهواء سرعان ما تنفجر من دون ان تخلف أثراً يذكر.

ولذلك عاش الإنسان في اغترابه المتشعب، وقد تعزز ذلك الشعور بظهور حركة الاستعمار الغربي للبلدان الاسيوية والافريقية على وجه الخصوص (فظاهرة الاستعمار - بما تحمله من مقومات ومفاهيم - تقوم على الغاء الوجود الحقيقي للمستعمر واستبداله بثقافة القوة الاستعمارية المهيمنة وفكرها، وهذه الظاهرة هي اكثر السبل توكيدا لمفهوم الاغتراب الذي يعني

التحول عن الذات، وهو المعنى الذي يسعى الاستعمار إلى غرسه في كيان الآخر الذي يسيطر عليه حتى يصبح وجوده مقبولا)[٢٥].

ولم يكتف الاستعمار بهذا في توكيد مفهوم الاغتراب بل عمد إلى سياسة التغريب التي تعتمد مبدأ تقويض الهوية الثقافية للشعوب المستعمرة، وإحلال نمط حياة المستعمر محلها لتكون هوية بديلة، وقد احدث هذا الامر شرخا في المجتمعات التي خضعت له بين المحافظين على هويتهم الثقافية الأصلية، والمتأثرين بالهوية الاستعمارية التي تدخلت في مجالات الحياة كافة واصبحت جزءا من منظومة التفكير ووسائله لدى هؤلاء.

وقد واجه العرب والمسلمون هذه الظاهرة في اقطارهم المختلفة بحسب الظروف التي مرت بها، فأقطار المغرب العربي وقعت تحت تاثير مباشر للفعل الاستعماري أدى إلى احلال اللغة الفرنسية محل العربية، فارضا في الوقت نفسه نمط الحياة الاوربية ومعززا مكانته بتعزيز مكانة لغته.

أما الأقطار الأخرى كمصر وبلاد الشام والعراق فقد واجهت قضية الحاجة إلى علوم الاوربيين وانقسام الناس بشانها بين التاثر وبين التحرز من التاثر بنمط الحياة الثقافية الاوربية، ولذلك نجد اعلام النهضة كجمال الدين الافغاني وتلميذه محمد عبده وغيرهم يدعون إلى التمييز في العمل مع الاوربيين بين نقل علومهم والافادة منها وفصلها عن نمط الحياة الثقافية الخاصة بهم.

مظاهر التقويض وغاياته:

تجلى فعل التقويض - فضلا عن المجال الثقافي - في مجالات أخرى ذات ارتباط وثيق بحياة الإنسان ومحاور تفكيره، فمن ذلك مجال الاتصال والاعلام اذ اتاح التقدم التكنولوجي الواسع تهيأة سبل الاتصال بين الشعوب ولم يعد

بامكان شعب مهما حاول ان يتحصن غلق أبوابه أو الانطواء على نفسه، فوسائل الاتصال قد تنوعت من الانترنت إلى البث الفضائي المفتوح وحتى الهواتف النقالة، وكل هذا يخلخل البنى الثابتة ويجعلها في تغير دائم متأثرة بعضها ببعض(٢٦).

ان انفتاح مجال الاتصال أدى إلى نتائج مختلفة، ففي الوقت الذي اتاح الاطلاع والتواصل فانه حفز في بعض الشعوب، ولاسيما في آسيا وأفريقيا، اهتماما خاصا بهويتها الثقافية الوطنية العامة، أو هويتها الأكثر خصوصية ضمن الهوية الوطنية، لذا (لم يكن من المستغرب ان يسعى مثقفو تلك البلادالى ثقافتهم الوطنية لاستعادتها حتى لو تضمن ذلك ربطها بمهاد عرقي أو اسطوري، فإذا كانت أوربا قد سعت إلى إحلال ثقافتها بلا حدود، فان الرد المنطقي هو ان يرتمي مثقفو تلك البلاد على ثقافتهم بلا حدود أيضاً)(٢٧) وهو ما قد يبلغ احيانا درجة التطرف الذي يناويء كل جديد ويدفعه دفاعا عن تلك الهوية المهددة.

أما المظهر الآخر ذي الأهمية الاستثنائية الذي ظهر فيه التقويض فهو "العولمة" بجانبها الاقتصادي، وذلك بجعل الاسواق مفتوحة بلا قيود، وجانبها الثقافي الذي هو نتيجة من نتائج ذلك الانفتاح الاقتصادي الذي يشيع نمط الاستهلاك الغربي في بلدان أدنى مستوى.

ويتصل بالجانب الثقافي أيضاً، وبفعل هذه العولمة، ذوبان الحدود بين الاجناس الادبية وانهيار التقاليد الفنية والأدبية، وحلول طابع السرعة في الإنتاج، وهيمنة مفاهيم المنفعة على مجال الإنتاج الفني والأدبي، والاهتمام بالحصيلة المادية المتوقعة من الإنتاج والتوزيع، كل هذا يجري بغض النظر عن القيمة العلمية أو الأخلاقية، يرافق ذلك حملات اعلانية واعلامية واسعة غايتها التاثير في قرارات المتلقي وجذبه لجذب ما يدفع من مال حتى اصبح

كثير من عناوين الكتب والاعمال الفنية خاضعا للصبغة التجارية وليس العلمية الحقيقية المعبرة عن محتواه.

ان المظهر الاكثر خطورة من مظاهر التقويض فهو الجانب السياسي اذ نلحظ سعيا حثيثا إلى تفتيت الكيانات الدولية الكبرى، وتفتيت البلدان ذات التنوع الاثني أو الديني أو الطائفي، والسعي إلى إقامة كيانات صغيرة ضعيفة معتمدة على غيرها بدرجة كبيرة، أو زرع بذور الصراعات في البلدان ذات التنوع وتحريكها بالطريقة التي تخدم مصالح الغرب، ويمثل العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين خير مثال تطبيقي لما خطط له الغرب في مدى العقود السابقة، إذ انهار الاتحاد السوفييتي في العقد الاخير من القرن العشرين ليجر معه مجموعة الدول الاشتراكية، وانهارت التكتلات الدولية الكبرى مثل مجموعة دول عدم الانحياز، وبدأت الصراعات العرقية والطائفية تزهق الارواح وتخرب البلاد، وإذا كانت فصول الصراع ما زالت جارية فان نتائجه المتوقعة أصبحت واضحة للعيان.

النتائج:

أنتج التقويض مجموعة من الافعال وردود الافعال التي يمكن إيجازها بالاتي:

١- ان التقويض أداة نقدية يمكن الافادة منها إذا وجهت بنية حسنة إلى دراسة ما يبدو انه من الثوابت أو النظم والافكار المهيمنة بقصد فحصها وتقويضها والتخلص من هيمنتها الاحادية التي تفرض رايها بطريقة دوغمائية غير قابلة للنقاش كما هو الحال في الحركات الدينية أو القومية المتطرفة.

٢- أدى التقويض إلى إثارة مجموعة من ردود الافعال المناوئة التي بلغت

حد التطرف أحياناً كما هو الحال في الدعوة إلى احياء الثقافات الغابرة والاحتماء بها، أو ظهور دعوات عرقية أو طائفية ضيقة ظنا من اصحابها بان ذلك يدخل ضمن الحفاظ على الهوية الثقافية لتلك الكيانات، واعتمادها مبدأ الصراع احيانا في دفاعها عن رأيها، أو في سعيها إلى فرض ذلك الرأي على الآخرين.

٣- أدى التقويض إلى ظهور الحركات الدينية الأصولية وتنميتها لتقف بمواجهته، وهي حركات راديكالية متطرفة لا تمثل الا اقلية اعتقدت انها وحدها التي تمثل الدين من دون غيرها.

٤- يقوم التقويض على مبدأ تهميش الدولة وتقليص ظلها اذ يضع السلطة بايدي الاقتصاد واحكام السوق والشركات العابرة للقارات لتكون الدولة نفسها في خدمة تلك الشركات ولتظهر بذلك طبقة اقتصادية ذات اقلية ولكنها مهيمنة بمقابل اغلبية ساحقة لا حول لها ولا قوة.

٥- ان اغلب القائلين بالتقويض من فلاسفة ونقاد هم من أصول يهودية، وهؤلاء يعيشون في اوربا بشعور مزدوج ناتج من التفاوت بين ما تعرضوا له من النبذ والايذاء من جهة، وتغلغلهم في مفاصل الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية.

٦- كان التقويض سببا مباشرا في التفات الشعوب إلى هويتها مهما كانت ضئيلة الأثر، ولذلك برزت دعوات الاحتفاظ بالهوية وتنميتها، فصعد المهمش إلى المركز كما هو الحال في دعوات الزنجية والافريقية، واليهودية، وبروز الأدب النسوي، وغير ذلك من المظاهر الناتجة.

٧- إذا كان التقويض قد ظهر في اوربا وتركز في فرنسا فانه سرعان ما وجد انتشاره الواسع في الولايات المتحدة الامريكية التي وجدت فيه مبتغاها واداتها المفضلة.

هوامش البحث

(١)- دليل الناقد الادبي: ١٠٨.
(٢)- معرفة الاخر: ١٤١.
(٣)- الحقيقة الشعرية: ٢١٧.
(٤)- الحقيقة الشعرية: ٢١٧.
(٥)- معرفة الاخر: ١٢٤.
(٦)الحقيقة الشعرية: ٢٠٢.
(٧) المرايا المحدبة: ٣٠٢.
(٨) ظ – التفكيكية دراسة نقدية: ٤٤.
(٩) المرايا المحدبة: ٣٣٧.
(١٠) ظ: الحقيقة الشعرية: ٢٢٩، دليل الناقد الادبي:٢٤١ – ٢٤٦.
(١١) التحليل الثقافي: ٥٤.
(١٢) التحليل الثقافي: ٥٤.
(١٣) التحليل الثقافي : ٥١.
(١٤) ظ: التحليل الثقافي: ٩٣ – ٩٤.
(١٥) دليلالناقد الادبي: ٢٢٢، وعن مفهوم اللوغوس مفصلا انظر المصدر نفسه: ٢١٨ – ٢٢٢.
(١٦) ظ: التفكيكية دراسة نقدية: ٤١ – ٤٣.
(١٧) من النسق إلى الذات: ٢٥.
(١٨) معرفة الاخر :١٣٥.
(١٩) من النسق إلى الذات: ٢٢.
(٢٠) من النسق إلى الذات: ٢٢.
(٢١) دليلالناقد الادبي: ٦٠.
(٢٢) ظ: الحداثة وما بعد الحداثة: ٢٨.
(٢٣) الحداثة: ٢٦.
(٢٤) ظ: نهاية الحداثة ٦٥ – ٧٤.
(٢٥) الاغتراب في الفن: ١٨٧.
(٢٦) ظ: الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد احداثة: ٩١.
(٢٧) دليل الناقد الادبي: ١٦٠.

قائمة المصادر والمراجع

- الاغتراب في الفن دراسة في الفكر الجمالي العربي المعاصر، د. عبد الكريم هلال خالد، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط١، ١٩٨٨.
- التحليل الثقافي، بيتر بيرجر، ترجمة وتقديم: احمد ابو زيد، الهياة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،٢٠٠٩.
- التفكيكية دراسة نقدية، بيير ف زيما، تعريب: اسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦.
- الحداثة، تحرير: مالكم برادبري وجيمس مكفارلن، ترجمة مؤيد حسن فوزي، دار المامون للترجمة والنشر , وزارة الاعلام، مطابع الحرية، بغداد، ١٩٧٨.
- الحداثة وما بعد الحداثة، محمد سبيلا، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ٢٠٠٥.
- الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقدية المعاصرة، د. بشير تاوريريت، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، اربد، الاردن، ط١، ١٤٣١ه – ٢٠١٠ م.
- دليل الناقد الادبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط٥، ٢٠٠٧.
- الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد الحداثة، محمد بو جنال، دار التنوير للطباعة، بيروت، ٢٠١٠.
- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك،د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت،١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
- معرفة الاخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، عبد الله ابراهيم وزميلاه، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٦.
- من النسق إلى الذات قراءات في الفكر الغربي المعاصر، د.عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.
- نهاية الحداثة، جياني فاتيمو، ترجمة: فاطمة الجيوشي، دار الثقافة، دمشق، ١٩٩٨.